مقاربة جديدة لمفهوم الوسطيَّة: من الاعتدال إلى الوساطة من أجل السلام في العالم

المحاضرة العامة (Studium Generale) في جامعة المحمدية - جاكرتا
الأربعاء، 12 نوفمبر 2025 (09:00 - 11:00 صباحًا)
بقلم Mufti Mustafa Ceric

ملخص

تقترح هذه المحاضرة إعادة قراءة لمفهوم الوسطيَّة في القرآن الكريم — والذي يُترجم تقليديًا بـ«الاعتدال» أو «الطريق الوسط» — بوصفه مبدأً أخلاقيًا ديناميكيًا للوساطة في إطار السعي العالمي نحو السلام. وفي حين أن الفهم التقليدي للوسطيَّة يؤكد على التوازن والاعتدال في السلوك الفردي والجماعي، فإن هذه المحاضرة تدعو إلى تطوير هذا المفهوم نحو تفاعلٍ علائقيٍّ فعّال؛ أي الانتقال من الاعتدال الداخلي إلى الوساطة الخارجيّة. واستنادًا إلى التفسير القرآني والسيرة النبوية والتاريخ الحضاري للإسلام, ترى المحاضرة أن الوسطيَّة ليست مجرد توازنٍ سلبي، بل منهجية نشطة للتوفيق بين الاختلافات.

وعبر أمثلة تاريخية — مثل إسناد عهدة مفتاح كنيسة القيامة في القدس إلى عائلةٍ مسلمة، وحفاظ المسلمين على المقدسات المسيحية تحت حكمهم كما في حالة بطريركية بيتش في كوسوفو — يتضح

كيف جسّدت الوساطة الإسلاميّة قيم الثقة والعدالة وحماية المقدّسات الخاصة بـ«الآخر» عبر القرون. ومن المنظور اللاهوتي، تعيد هذه المقاربة إحياء الوصف القرآني للأمة الإسلامية بأنها «أمّة وسطًا» (أمّة متوازنة عادلة) بوصفه تكليفًا بالوساطة بين الأديان والحضارات والرؤى الكونيّة، على أساس أن السلام أمانةٌ إلهيّةٌ وواجبٌ أخلاقي. وفلسفيًا، تضع مفهوم الوسطيَّة ضمن إطار أوسع من العالميّة الأخلاقيّة، بحيث لا يكون التعايش مجرد تسامح، بل شكلاً من أشكال الوصاية الأخلاقية الخلاّقة. وفي الختام، تقترح المحاضرة أن تطبيق الوسطيَّة في القرن الحادي والعشرين يتطلّب تحوّلاً جذريًا في النموذج الفكري — من أخلاقيات ضبط النفس إلى أخلاقيات الانخراط الفعّال، ومن الاعتدال باعتباره حيادًا إلى الوساطة باعتبارها خدمة. إن إحياء هذا المبدأ يقدّم نموذجًا قرآنيًا لبناء السلام العالمي والدبلوماسيّة بين الأديان، ولتنمية أفقٍ أخلاقيٍّ مشتركٍ قائمٍ على الحقيقة والعدالة والرحمة والاعتراف المتبادل.

الكلمات المفتاحية:

الوسطيَّة، الوساطة، الاعتدال، الأخلاق القرآنية، السلام بين الأديان، اللاهوت الإسلامي، وساطة المسلمين، الأخلاق الحضارية، العدالة، وبناء السلام العالمي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمدٍ الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطه المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

حضرات العلماء الأفاضل، والزملاء المحترمين، والطلبة الأعزاء، والضيوف الكرام،

إنه لشرفٌ ومسؤوليةٌ أخلاقيةٌ في آنٍ معًا أن أخاطب هذا الجمع الكريم هنا في جامعة المحمدية بجاكرتا ـــ تلك المؤسسة التي يمثّل إرثها الفكري منارةً للتنوير، ومثالاً للتمكين والإصلاح، وتجسيدًا للالتزام بمُثُل الإيمان الإسلامي والإنسانية. إن موضوعنا اليوم ـــ «مقاربة جديدة لمفهوم الوسطيّة: من الاعتدال إلى الوساطة من أجل السلام في العالم» ـــ لا يدعونا إلى التأمل فحسب، بل يدعونا أيضًا إلى التجديد؛ ولا إلى تفسير التراث فحسب، بل إلى العمل به بشجاعةٍ ورحمةٍ في عالمٍ مضطرب.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...}.

إن مصطلح «الوسطيّة» هنا يتجاوز الدلالة السطحية لِـ«الاعتدال» بوصفه مجرد توسطٍ أو حياد. فهو يشير إلى التوازن الأخلاقي العميق الذي يدمج بين الإيمان والعقل، والعدالة والرحمة، والحقيقة

والتواضع. أن يكون المرء «وَسَطًا» لا يعني ببساطة الوقوف بين النقيضين؛ بل يعني تجسيد مركزٍ حيويٍّ يوحّد التنوع، ويشهد للحق والعدل والسلام والمصالحة بإنصافٍ وتعاطف.

لقد ركّز التفسير التقليدي للوسطيّة غالبًا على فضيلة الاعتدال — أي تجنّب الإفراط في الاعتقاد أو السلوك أو الشعور. وبينما يظل هذا فضيلةً نبيلةً وجوهرية، فإن السياق العالمي اليوم يقتضي موقفًا أشد فاعليةً: ألا وهو الوساطة.

على الصعيد الروحي، تعني الوساطة حالةَ قلبٍ متصلٍ بالله لكنه حاضرٌ بين الناس؛ يبحث عن الحقيقة دون غرور؛ يمارس الرحمة دون ضعف؛ يظهر الشجاعة دون عدوان؛ ويحافظ على التواضع دون أن يُلغي ذاته.

وعلى الصعيد الأخلاقي، فإن الوساطة هي القدرة على أن يتصرف المرء بعدلٍ حين يجذب الغضب من جهة وتستهوي الشهوة من جهة أخرى. وهي أن يقف الإنسان في الوسط ثابتًا — غير خاضع لنزوةٍ أو كبرياء.

ليست الوساطة بهذا المعنى مجرد مفاوضةٍ سياسية فحسب؛ بل هي فنٌّ روحيٌّ وأخلاقيٌّ لبناء الجسور — بين المجتمعات، وبين الأديان، وبين الرؤى المختلفة. إنها تحويلٌ لمفهوم الوسطيّة من امتناعٍ سلبيٍّ إلى مشاركةٍ فاعلة؛ ومن مجرد كون المرء متوازنًا إلى السعي لتحقيق التوازن في العالم من حولنا.

هناك توجيهٌ واضحٌ — بل أمرٌ صريح — لنا في القرآن والحديث والسيرة النبوية بأن نعمل وفق نهج الوسطيّة بوصفه وساطةً:

- أولاً، مثالُ الوساطة في المؤاخاة (الإخاء بين المؤمنين): أبرزَهُ قولُ اللهِ تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}. ولتجسيد هذا الأمر الإلهي، عندما وصل النبيُّ ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وأبرم «صحيفة المدينة» (دستور المدينة)، الذي أرسى الحقوقَ والواجباتِ المتبادلة وآلياتِ التحكيم بين القبائل ومختلف الطوائف الدينية. وقد أدّى ذلك إلى التوسط هيكليًا لإنهاء عداواتٍ طويلة وتحويلها إلى ميثاقٍ مدني. ولا شك أن الدرس المستفاد للوساطة الحديثة هو تضمينُ منهجِ المصالحة في المؤسسات والمواثيق؛ ووضعُ إجراءاتٍ واضحةٍ لحلّ النزاعات عبر المجموعات؛ وتحقيقُ التوازن بين الهوية الخاصة والالتزامات المدنية المشتركة.
- ثانياً، الوساطةُ النبويةُ التاريخيةُ بين القبيلتَين المتخاصمتَين الأوسِ والخزرج، والتي خَلّدها قولُ اللهِ تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ۚ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا...}. وهنا تتجلّى الرسالةُ الواضحةُ لكيفيةِ تحويلِ النبيِّ ﷺ القبيلتين المتعاديتين (الأوس والخزرج) إلى إخوةٍ متآخين ضمن الأنصار، عبر القيادة الروحية والشعائر الجماعية والدفاع المتبادل والتوزيع العادل — محوِّلاً تاريخًا من الثأر إلى إخاءٍ

دائم. والدرسُ المستفادُ للوساطة الحديثة هو الجمعُ بين البناء الروحي/المجتمعي وتسويةِ النزاعات؛ واستبدالُ دواماتِ الثأرِ بمؤسساتٍ مشتركة؛ والحفاظُ على السلامِ من خلال الإنصافِ في المنافع العامة.

- ثالثاً، لا تقتصرُ الوساطةُ (الوسطيّةُ) على الشؤونِ العامة فحسب، بل تشملُ شؤونَ الأسرة أيضًا. قال اللهُ تعالى: {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ۖ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا}. ويأمرُ القرآنُ هنا بتعيينِ حكمٍ من كلِّ جانبٍ للتوسطِ في الخلافِ الزوجي. وقد طبّق النبيُّ ﷺ هذا المبدأ في إرشادِ الأسر، مشجّعًا على العدلِ والحلمِ وإشراكِ طرفٍ ثالثٍ عند الحاجة. وهكذا، فإن الدرسَ المستفادَ للوسطيّة الحديثة في الوساطة الأسرية هو تعيينُ حَكَمَيْن موثوقٍ بهما من كلِّ طرفٍ في القضايا العائلية؛ وتحقيقُ التوازن بين الحقوق والرحمة وخصوصية الحياة الأسرية؛ والسعيُ إلى الإصلاح قبل التفكيرِ في الفراق.

وطبعًا، فإن من أبرز الأمثلة التاريخية التي جمعت بين الوساطة والاعتدال هو صلحُ الحديبيّة الذي أبرمه النبيُّ ﷺ. فعلى الرغم من أنه كان في ظاهره مؤلمًا، فقد أتاح صلح الحديبية مجالاً للاتصال الآمن والدعوة والتحالفات؛ إذ يُعدُّ نموذجًا للتفاوض المرتكز على المصالح، مع تنازلاتٍ مدروسةٍ أثمرت استقرارًا طويل الأمد. ومن ثم، فإن الدروسَ المستفادةَ للوساطة الحديثة هي:

تفضيلُ الهُدنِ طويلةِ الأجل على الانتصاراتِ قصيرةِ المدى؛ وتقديمُ التنازلات في الرموز عندما يكون الجوهرُ مصونًا.

وبفضل هذه التوجيهات القرآنية والممارسات النبوية في الاعتدال والوساطة (الوسطيّة)، يجوز لنا أن نفخر بتاريخنا الإسلامي الذي ابتدأ بـ«صحيفة المدينة» — ميثاق المدينة — بوصفه مخططًا لبناء صرحٍ مدنيٍّ إسلامي وحّد المسلمين واليهود والقبائل الأخرى في كيانٍ سياسيٍّ واحدٍ قائمٍ على العدل والدفاع المتبادل. فقد احتفظ يهود المدينة بدينهم واستقلالهم القانوني، بينما شاركوا في الأمن الجماعي للمجتمع. ولا تزال هذه الوثيقة شاهدةً على كيف حوّلت الرؤية الإسلامية للوسطيّة (الاعتدال والوساطة) الخلافاتِ العقَدية إلى تعايشٍ مدنيّ.

وعلى امتداد التاريخ الإسلامي، وبروح الاعتدال والوساطة هذه، أصبح المسلمون في الأندلس حُرّاسًا لثقافةٍ تعدديةٍ تمكّن فيها اليهودُ والمسيحيون ليس من التعايش فحسب بل من التعاون أيضًا. ففي ظل الخلافة الأموية في قُرطبة، تدفّق العلمُ بحريةٍ بين أهل الأديان. وقد عمل الفلاسفةُ المسلمون واللاهوتيون اليهودُ والمترجمون المسيحيون معًا على بناء جسورٍ أحيت التراثَ الكلاسيكي ونقلتْهُ إلى أوروبا — التجلّي الحقيقيُّ للوسطيّة بوصفها وساطةً.

وكذلك في بغداد ولاحقًا في إسطنبول, أسّس المسلمون نظامًا مؤسسيًا للوساطة تجسّد في مفهوم أهل الذمّة وفي التعددية القضائية. فقد عاش غيرُ المسلمين تحت الحماية، وحُكموا وفق

شرائعهم الخاصة. وإن بيتَ الحكمة العباسيّ ونظامَ الملل العثماني يمثّلان وساطةً منظّمةً بين الحضارات ـــ تحقيقَ التناغمِ ضمنَ التنوعِ من خلال العدل.

لعلكم سمعتموني ذكرتُ مفهوم «أهل الذمّة». دعوني أوضّح مقصدي بذلك: أعني أنه على الرغم من التشويهات المتعمّدة، يظل مفهومُ الذمّة أحدَ أكثر المفاهيم تقدّمًا وريادةً في تصور حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، وذلك في زمنٍ لم يكن فيه أي بارقة لفكرة الحقوق العالمية كما عرفناها لاحقًا في الأمم المتحدة. ومن غير أي ضغطٍ خارجي، استنبط الفقهاءُ المسلمون، انطلاقًا من روح الاعتدال والوساطة، أحكامًا جعلت على عاتق السلطة المسلمة الأغلبيّة واجبَ تقديرِ وحمايةِ خمسةِ قيمٍ أساسيةٍ من حقوق الإنسان لغير المسلمين الذين يعيشون بينهم: حقُّ الحياة (النفس)، وحقُّ الدين، وحقُّ العقل (الحرية)، وحقُّ المال (الملكية)، وحقُّ العِرْض (الكرامة). ولمن يشتكون من مفهوم الذمّة إذ يعتبرونه يجعل غير المسلمين مواطنين من الدرجة الثانية في المجتمعات المسلمة، فإنني أدعوهم إلى أن يطالبوا بتطبيق هذا المفهوم نفسه على المسلمين حيثما كانوا أقليّةً في بلدانٍ ذات أغلبية غير مسلمة؛ أي الدعوةَ إلى إقرار مبدأ تقدير هذه القيم الإنسانية الأساسية الخمس وحمايتها للمسلمين: حقُّ الحياة، وحقُّ الدين، وحقُّ الحرية، وحقُّ الملكية، وحقُّ الكرامة.

إن هذه الروحَ الكامنةَ في مفهوم أهل الذمّة هي التي قدّمت تفسيرًا جوهريًا لغياب ظاهرة معاداة السامية بشكلٍ لافتٍ في الحضارة

الإسلامية ـــ سواءٌ في النظرية أو في التطبيق المؤسسي. وبينما شهدت المجتمعاتُ الإسلامية، كسواها، لحظاتِ توتّرٍ سياسي أو صراعٍ مع جماعاتٍ يهودية، إلا أن ذلك لم يتطوّر قطّ إلى معاداةٍ منهجيةٍ لليهود على أسسٍ عرقية أو لاهوتية كالتي وصمت تاريخَ أوروبا. إن نظرةَ القرآن إلى اليهود والمسيحيين بوصفهم «أهلَ الكتاب» تنطوي على إقرارٍ لاهوتيٍّ أساسيٍّ بمبدأ الوحي المشترك والمسؤولية الأخلاقية والاصطفاء الإلهي. فلم يُلغَ العهدُ الإلهيُّ مع بني إسرائيل في التوراة ولا الإنجيلُ الممنوحُ لأتباعِ عيسى عليه السلام، بل تم تأكيدُ كلٍّ منهما، حيث وُضع كلٌّ منهما في سياقه ضمن سلسلة التواصل الإلهي المتصلة التي توّجها القرآنُ الكريم.

ولو سُئلنا عن الأسس التي قام عليها هذا الإرثُ التشريعيُّ والأخلاقيُّ المتقدّمُ للحضارة الإسلامية، لقلنا إنها تكمن في الميثاقِ الأزليِّ وأساسِ مبدأ التوحيد الوجودي. يقول الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ}. تُعرف هذه الآية بآية الميثاق («ألستُ بربكم»)، وهي تكشف الأصل الميتافيزيقي للإيمان. فقبل بدء التاريخ، أقرّت البشرية بوحدانية خالقها. إن ذلك الإقرارَ الأول ـــ «قالوا بلى» ـــ هو أولُ تعبيرٍ عن التوحيد، منقوشٌ ليس في الكتب بل في فطرةِ كل إنسان.

يُبرز القرآنُ مبدأ التوحيد بوصفه أمرًا متأصّلاً في الفطرة الروحية للبشر. فالإنسانُ لا يُصبح إنسانًا ـــ كائنًا واعيًا بذاته ـــ إلا بعد

أن يتلقّى روح الله، أي نفخةً من روحِه تعالى: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}. إن نفخةَ الروحِ الإلهيةِ هذه تشكّل البصمةَ الوجوديةَ للتوحيد؛ فهي تحوّل الكائنَ البشريَّ من وجودٍ بيولوجيٍّ إلى وجودٍ ذا طابعٍ إلهي ـــ كائنًا واعيًا بالواحد، قادرًا على المعرفة والأمانة والذِّكر.

إن الأنثروبولوجيا العلمية الحديثة، التي بدأت مع التصوّر الطبيعي لـ Charles Darwin وتوسّعت مع مفكرين مثل E. B. Tylor وJ. G. Frazer، تفترض أن الدين تطور من الأرواحية البدائية، إلى تعدد الآلهة، وأخيرًا إلى التوحيد. وضمن هذا النموذج، لا يكون التوحيدُ هو الأصلَ بل ثمرةَ تقدّم الإنسان. إلا أن القرآن يعكس هذا التسلسل: فالإنسانُ يبدأُ بالتوحيد ثم ينحطّ إلى الشرك عبر النسيان والكِبْر. قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}.

وفي هذا المنظور، يأتي الوحيُ ليس كشفًا جديدًا بل تذكيرًا ـــ استعادةً للفطرة (الإيمان الطبيعي) الذي ينساه البشرُ ويستبدلونه بدينٍ مصطنعٍ من أهوائهم. إن سلسلةَ الوحي ـــ التوراة والإنجيل والقرآن ـــ تمثل تذكيرًا متواصلاً للحقيقة الأصلية ذاتها. فكلُّ كتابٍ سماويٍّ ليس دينًا جديدًا، بل نسخةٌ جديدةٌ من العهد نفسه الذي قيل لأول مرة في عالم «ألستُ بربكم». لقد حمل آدم ذكرى الخلق، وجدد نوح الإيمان بعد الفساد، وحطم إبراهيم الأصنام، وأعاد موسى إحياء الشريعة، وأعاد عيسى روح الرحمة، وختم محمدٌ

ـــ عليهم الصلاة والسلام أجمعين ـــ الوحيَ كتذكرةٍ أخيرةٍ: التذكيرُ بوحدةِ اللهِ ووحدةِ البشر.

إن عقيدةَ الفطرةِ تشكّل حجرَ الزاوية في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الإسلاميّ من منظورٍ لاهوتي. فهي تقرّر أن الإيمانَ بإلهٍ واحد أمرٌ فطريٌّ، بينما الإلحادُ أو الشركُ طارئٌ مكتسَب. وعلى خلاف الأنثروبولوجيا الدنيوية (العلمانية)، يطرح القرآنُ الإيمانَ بوصفه الحالةَ الطبيعية، والكفرَ على أنه الانحراف. وهكذا، يعيد التوحيدُ تعريفَ المعرفةِ ذاتها: فالمعرفةُ الحقيقيةُ هي الذكرُ ـــ تذكّرُ الحقيقةِ السابقةِ للوجود. والوحيُ هو آنامنسيس مقدس ـــ استذكارٌ للعهد الأول «بلى» الممهور في كل قلب. وبخلاف النظرية التطورية للأديان، يرى القرآنُ أن التوحيدَ هو مصدرُ كرامةِ الإنسان. فمعرفةُ الواحد هي معرفةُ النفس، لأن الروحَ مرآةٌ لخالقها: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَّ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

وهكذا، فإن رؤية القرآن ليست رؤيةَ تطورٍ، بل رؤيةُ تذكّر؛ وليست ارتقاءً بالعقل بل عودةً بالروح. إن النفخةَ الإلهية التي جعلت من الإنسان إنسانًا تحمل في داخلها ختمَ الوحدة ـــ تلك «بلى» الأزلية المنقوشة على كل قلب. فالتوحيدُ لا يُتعلَّم، بل يُتذكَّر.

وانطلاقًا من هذا الفهم للتوحيد ـــ بوصفه جوهرَ العقيدة الإسلامية ـــ نستطيع أن نُلقي ضوءًا جديدًا على معنى «بني إسرائيل» في

القرآن، لا في ضوءِ الدم بل في ضوءِ الروحِ والرحلةِ الإنسانيةِ العالمية نحو الله تعالى. فكلما تأملنا أكثر، ازددنا شعورًا بأن المفهوم القرآني لـ «بني إسرائيل» يتجاوز الأنسابَ ويدخل حيزَ الأنثروبولوجيا الروحية. إنه لا يصف قومًا محدّدين فحسب، بل يمثل نموذجًا لمسيرة البشرية الميثاقية نحو الله. فمن نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى ومحمد ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ يصوغ القرآنُ مسيرةَ الوحي على أنها حوارٌ متواصلٌ للإيمان والثقة والتجديد. وفي إطار أخلاقيات هذا العهد، يظهر مفهومُ الوساطة ـــ الأخلاقية والروحية والحضارية ـــ كعنصرٍ محوريٍّ في الرؤية القرآنية للعالم.

كما هو معلوم، فإن التاريخَ المضطربَ لمعاداة السامية في الغرب المسيحي كان متجذّرًا في بناءين لاهوتيين متنافسين ومتقاطعين: نظرية «العهدين» ولاهوت «استبدال العهد» (التفويض والاستعلاء). الأولى واجهت صعوبةً في التوفيق بين استمرار صلاحية عهد بني إسرائيل وبين مزاعم الكنيسة الخلاصية، بينما قامت الثانيةُ باستبدال عهدِ بني إسرائيل بالعهد الجديد في المسيح إلغاءً تامًا. وقد أدّت هذه الأزمةُ اللاهوتيةُ غيرُ المحسومة إلى عداواتٍ تاريخيةٍ تجلّت في كتاباتٍ جدليةٍ ومراسيم كنسيةٍ واضطهاداتٍ مأساوية.

أما وسطيّةُ الإسلام ـــ باعتدالِه ووساطتِه ـــ فقد نزعت فتيلَ تلك العداوة من خلال تجاوز ثنائيةِ العهودِ الحصرية. فلم يُلْغِ الوحيُ القرآنيُّ لا التوراةَ ولا الإنجيل، بل أعاد دمجَهما في الميثاق

الأصليِّ الشامل ـــ ذلك العهدُ الكونيُّ بالاعترافِ بالإله قبل كل الوحي الخاص. إن هذا الشمولَ اللاهوتيّ حال دون أن يُطوّر الإسلامُ أيَّ عقيدةٍ لاتهام اليهود جمعيًا بذنبٍ لاهوتيٍّ أو لعداوةٍ عرقية. وحتى عندما ينتقد القرآنُ بعضَ فئاتِ اليهودِ أو المسيحيين، فإنه يفعل ذلك ضمن إطارِ المسؤوليةِ الأخلاقية لا الإدانةِ الماورائية; فتوبيخاته أخلاقيةٌ لا عرقية.

إن هذا التمركزَ الإلهي في البنية الفكرية ـــ الذي يربط الحكمَ على البشر بسلوكهم الأخلاقي لا بانتمائهم العِرقي أو وضعهم العهدي ـــ ضمن أن الحضارة الإسلامية حافظت، أقله نظريًا, على إطارٍ للتعايش التعددي. فنظامُ الذمّة، رغم هرميته القانونية، مثّل حمايةً تعاقديةً لا اضطهادًا، إذ منح الجماعاتِ اليهوديةَ والمسيحيةَ حكمًا ذاتيًا في العبادة والقضاء والتعليم. ومن صحيفةِ المدينة عام 622م, التي جعلت المجتمع اليهودي جزءًا من الأمة، إلى ازدهارِ الثقافةِ اليهودية تحت الحكم الإسلامي في الأندلس وبغداد والقاهرة، حافظ نموذجُ الوسطيّة ـــ باعتباره جمعًا بين الاعتدالِ والوساطة ـــ على روحٍ حضاريةٍ تمايزت بوضوح عن الثنائية الإقصائية التي ميّزت مسيحيةَ العصور الوسطى.

وبمصطلحاتٍ فلسفيةٍ ولاهوتية، تعمل الوسطيّةُ عبر الاعتدالِ والوساطةِ كمنهجٍ للمعرفة قائمٍ على التوازن: توليفةٌ تجمع بين الوحي والعقل، وبين الهوية الخاصة والأخلاق العالمية. وهي تعكس أنثروبولوجيا قرآنيةً ترى البشريةَ أمّةً واحدةً متنوعةً بإرادةٍ

إلهية: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا... وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً... فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...}.

إن هذا المبدأ يقوّض الأساس اللاهوتي الذي قامت عليه معاداةُ السامية تاريخيًا: فكرةُ المحاباة الإلهيةِ والإقصاء. وبدلاً من ذلك، فإن رؤيةَ الإسلامِ لوحدةِ الله (التوحيد) تترجم إلى أخلاقِ العدل العلائقي، التي تعتبر الاختلافَ آيةً لا نقمة. وبناءً على ذلك، فإن خلوَّ الفكر الإسلامي من معاداة السامية ليس أمرًا عابرًا ولا مجرد نتيجةٍ اجتماعيةٍ سياسية؛ بل ينبثق عضويًا من منطق الوسطيّة نفسه — من لاهوتٍ وسطيٍّ يستعيد التوازنَ (التعادل) ويؤكد استمرارَ السلسلة الإبراهيمية ضمن وحدة المقصد الإلهي. وبينما تأرجح التقليدُ الدينيُّ الغربيُّ بين الإحلالِ والتنافس، حافظ الإسلامُ على مسارٍ ثالثٍ هو الشهادة — مؤكِّدًا أن النفخةَ الإلهيةَ نفسها هي التي تحيي عهودَ موسى وعيسى ومحمّد.

لقد كانت الجدليةُ بين الحصرية والعالمية داخل التقاليد الإبراهيمية موضوعًا دائمًا للتأمل اللاهوتي. ففي اليهودية، يشير العهد (بالعبرية: بريت) إلى اختيارٍ إلهيٍّ دائمٍ لليهود كحمَلةٍ للتوراة وشهداء على الشريعة الإلهية. أما المسيحية، فتعيد تفسيرَ هذا المفهوم من خلال العهد الجديد في المسيح، لتعميم الوعد الخلاصي وتوسيعه إلى ما وراء الحدود العرقية والطقسية، مع إضمارِ إحلال العهد الموسوي في كثيرٍ من الأحيان. بيد أن الإسلامَ يدخلُ هذا الحوار اللاهوتي باعتباره وحيًا وسيطًا، مثبتًا شرعيةَ كلٍّ من التوراة والإنجيل، مع استعادة الوحدة الأصلية للوحي. ويطرح

القرآن النبيَّ محمدًا ﷺ بوصفه خاتمَ النبيين، بحيث تؤكد رسالته ما سبقها من الشرائع ولا تُلغيها: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...}.

إن وساطةَ الإسلامِ اللاهوتية تستند إلى فكرة العهد الشامل (ميثاق ألستُ)، كما أسلفنا. فهذا العهدُ يسبقُ جميعَ الهوياتِ الدينيةِ التاريخية ويرتكز إليها، مؤكِّدًا أن الربوبيةَ (الألوهية) واعترافَ البشرِ بالعبودية لله يشكلان الرباطَ الجوهري بين الخالق والمخلوق. وبينما تؤكِّد اليهوديةُ خصوصيّةَ الاصطفاءِ التاريخي لبني إسرائيل، وتبشِّر المسيحيةُ بعالمية الخلاص عبر وساطة المسيح، يستعيد الإسلامُ العالميةَ الأنطولوجيةَ للالتزام بين الخالق والإنسان. ومن هذا المنظور، لا يُنظَر إلى الوحي باعتباره ادعاءاتٍ متنافسة، بل تصديقاتٍ متعاقبةً لنيّةٍ إلهيةٍ واحدة.

وهكذا يقوم الإسلامُ بدور الوسيط اللاهوتي بين الوعي اليهودي بالعهد الحصري وبين الدعوى الكنسية بالخلاص الكوني. فهو يقدّم تأويلاً موحِّدًا يتجاوز الحدودَ المذهبية، مؤكِّدًا مبدأ التوحيد الإلهي كأفقٍ لجميع الوحي. ومن ثَمّ، تضعُ الرؤيةُ القرآنيةُ الإسلامَ بوصفه مكمِّلاً ومصحِّحًا معًا ـــ فهو يؤكّدُ أصالةَ الكُتبِ السابقة، وفي الوقت نفسِه يعيدُ التشديدَ على أن العهدَ في نهاية المطاف يشملُ الإنسانية جمعاء. وفي حوار الأديان، يتحدى هذا النموذجُ اللاهوتياتِ الإقصائيةَ بتأكيدِ أساسٍ إلهيٍّ مشترك: فجميعُ الرسالاتِ النبوية تنبثق من المصدرِ الإلهي الواحد، ولا يختلف بعضها عن

بعض إلا في التعبير التاريخي, لكنها تلتقي في الميثاقِ القرآني الأزلي («ألستُ») الذي يربط البشرَ بربهم.

وفي روح هذا النهج اللاهوتي الوسيط، أُوكلت أمانةُ كنيسة القيامة في القدس — أقدسِ موقعٍ في المسيحية — إلى عائلتين مسلمتين: عائلة نسيبة وعائلة جودة الحسيني. وترجع جذورُ هذه الأمانة الفريدة إلى القرن الثاني عشر، حين هدّدت الخلافاتُ الداخليةُ بين المذاهب المسيحية وحدةَ الوصول إلى الكنيسة. وفي خطوةٍ عميقةٍ من الثقة المتبادلة بين الأديان، قرّر البطاركةُ المسيحيون مجتمعين أن تعهَدَ أسرةٌ مسلمةٌ محايدةٌ بدور الحارس الوسيط للمفتاح. وفي كل صباح، يقوم أحدُ أفرادِ عائلة نسيبة بفتح أبواب الكنيسة لتمكين المصلّين من الدخول، وفي كل مساء تُغلَق الأبوابُ تحت إشرافهم. بينما تحتفظ عائلةُ جودة الحسيني بالمفتاح المادّي نفسه — وهو مفتاحٌ حديديٌّ أثريٌّ يرمز إلى استمرارية المسؤولية المقدسة. وقد انتقلت هذه الأمانة بلا انقطاعٍ من جيلٍ إلى جيل.

ومن الناحيتين اللاهوتية والرمزية، يجسّد هذا الترتيبُ المبدأَ القرآني للوسطيّة — من الاعتدال إلى الوساطة. فالمسلمون في القدس لم يعملوا بوصفهم فاتحين أو مالكين، بل كانوا خُدّامًا وأمناءَ ووسطاءَ بين الفِرَق المسيحية. إن وجودهم يحفظ سلامةَ المكان المقدس ويصون التعايشَ بين الأديان في مدينةٍ طالما مزّقتها الصراعات العقَدية. ولذلك فإن المفتاحَ ليس مجردَ غرضٍ مادي، بل هو عهدٌ حيٌّ من الثقة بين أبناء إبراهيم.

وإن لم تكن هناك «أمانة مفتاح» رسميّة لدى بطريركية بيش الصربية الأرثوذكسية، فإن التفاعلَ التاريخي بين المسلمين والمسيحيين في كوسوفو يكشف نمطًا آخر من الوساطة. فخلال الحقبة العثمانية، واصلت العديدُ من الأديرة الأرثوذكسية — ومنها دير بيش — عملَها تحت الوصاية الإسلامية. وإن حفاظَ المسلمين عليها وحمايتَها يوضّحان الفهمَ العثمانيَّ للذمّة بوصفها رعايةً وحمايةً لا قمعًا: حفاظًا على حقوقِ وتراثِ الجماعات غير المسلمة ضمن الإمبراطورية العثمانية.

أما ديرُ بيش، الذي تأسّس في القرن الثالث عشر والقلبُ الروحيُّ للكنيسة الصربية الأرثوذكسية، فقد حَظِي بالاعتراف واستمرّت رعايتُه عبر تغيّر السُّلطات. وإن بقائَهُ إلى الأزمنة الحديثة — رغم النزاعات — يُعَدُّ شاهدًا على كيف استطاع الحكمُ الإسلاميُّ أن يعمل كأداةٍ للوساطة بدلاً من الإقصاء. وعلى الرغم من أن هذه الحالة ليست مطابقةً تمامًا لنموذج القدس، إلا أنها تعكس روحًا مشابهة: وهي أن مقدساتِ الآخر يجب أن تُصان، فإن في صونها حفاظًا على الوضوحِ الأخلاقي.

إن هذين المثالين — القدس وبيش — يجسّدان المعنى الأعمق للوساطة الإسلامية. فهما يحوّلان المثالَ القرآنيَّ «أُمَّةً وسطًا» (أُمّةً متوازنةً عادلةً) إلى واقعٍ تاريخي. ومن خلال حفاظهم على المزارات المسيحية، أثبتَ المسلمون شكلاً من الوسطيّة يتجاوز العقيدة ليُصبح أخلاقًا حضارية: الحمايةُ والتوازنُ وضمانُ استمرارية المقدس وسط التنوع.

إن تقليدَ الوساطةِ هذا — المتجذّر في العدل والتواضع — يبيّن أن الحضارةَ الإسلامية في أوجها لم تكن قائمةً على الهيمنة، بل على المسؤولية. فقد وقف المسلمون أوصياءَ لا على دينهم وحده، بل على العهدِ الأخلاقي العالمي بين الإنسانية والله.

وفي عصرٍ كثيرًا ما يطغى فيه الصراعُ الدينيُّ على التعاون، تذكّرنا هذه الأمثلةُ والموروثاتُ برسالةِ الإسلام التاريخية: أن يكون جسرًا بين المجتمعات. إن حِفاظَ المسلمين على الأماكن المقدسة المسيحية يدل على أن السلامَ بين الأديان ليس يوتوبيا حالمة، بل هو حقيقةٌ تاريخية. وهو يؤكّد أن الثقةَ متى قدّستها النياتُ الصادقةُ يمكن أن تصمد قرونًا من التغيّرات السياسية.

إن مثالَ الأسرتين المسلمتين في القدس والتعايش التاريخي في بيش يصوّران جوهرَ النهج الجديد للوسطيّة: من الاعتدال بوصفه ضبطًا للنفس إلى الوساطة بوصفها خدمة. إنه شهادةٌ حيّةٌ على أن الدعوة القرآنية إلى التوازن هي أيضًا دعوةٌ إلى بناء السلام الفاعل — أن نكون شهداءَ ليس بالقول فقط، بل بالثقةِ والفعل.

منذ بداياته الأولى، لم ينعزل الإسلامُ عن الخطاب الإبراهيمي — بل دخله كوسيطٍ أخلاقي، شاهِدًا على الحقائقِ الموجودة في الوحي السابق ومصححًا لتحريفاتها. وكما أسلفنا، يصف القرآنُ الأمةَ المسلمة بأنها «شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»، لأنها تقف عند ملتقى العهود

السابقة — لا تُنكر الإرثَ الميثاقيَّ للتوراة، ولا تُلغي الطموحاتِ الكونيةَ للإنجيل، بل تُقرّ بأصلهما الإلهي المشترك.

إن أزماتِ عصرِنا الحاضر — من التطرف العنيف إلى انهيار المناخ، ومن تهجير اللاجئين إلى التضليل الرقمي — ليست مجردَ أزماتٍ سياسيةٍ أو اقتصادية. بل إنها ذاتُ جذورٍ روحيةٍ ونتائجَ أخلاقية.

إن أزمةَ عصرِنا هي أزمةُ معنى، وشَرْخٌ في المخيلة الأخلاقية للبشرية. ويُقدّم مفهومُ الوسطيّة ترياقًا لهذه الأزمة — لكنه لن يُحقّق غايته إلا إذا كنا مستعدين لإعادة فهمه كأخلاقٍ عالميةٍ للوساطة.

وهنا في إندونيسيا — أكبرِ دولةٍ ديمقراطية ذات أغلبية مسلمة في العالم — جسّدت حركةُ المحمدية هذه الرؤيةَ التحويليةَ للإسلام منذ أمدٍ بعيد. إن التزامها بالتجديد والتعليم والعدالة الاجتماعية يمثل التجسيدَ الحيَّ للوسطيّة من الاعتدال إلى الوساطة في الواقع الميداني.

وقد فهِمَ كبارُ علماءِ المحمدية — من Kyai Haji Ahmad Dahlan إلى الجيل الحالي — الإسلامَ بوصفه قوةً من أجل التقدم، لا عبر الصراع بل عبر الحوار والخدمة. وهذه هي الوساطةُ في أعلى معانيها الأخلاقية: تطبيقُ المبادئ المتوازنة

لرتقِ نسيج المجتمع وتمكينِ الفئات المهمشة عبر المعرفة والتعاطف والتضامن.

ففي الواقع، Kyai Haji Ahmad Dahlan (1868–1923)، مؤسسُ المحمدية، عبّر عن روحِ الوسطيّة ليس أساسًا عبر التنظير بل من خلال الممارسة — مُوفِّقًا بين التعبّد الديني والإصلاح الاجتماعي والتعليم والتحديث. وقد شدّد منهجه في الوسطيّة على التوازن بين الإيمان والتقدم العقلاني، وبين التمسك بالتعاليم الأصيلة والانفتاح على الجميع، مما جعل الإسلام قوةً بنّاءةً في تطوير المجتمع. وقد اعتزَّ جميعُ قادةِ المحمدية السابقين والحاليين بإرثه: Kyai Haji Ibrahim، وKyai Haji Ahmad Badawi Mansur، و-Kyai Haji Muḥammad Sirāj al-Dīn Šams al-Dīn، وKyai Haji Haedar Naṣir، على سبيل المثال لا الحصر. جميعُهم يؤكدون أن الوسطيّة هي حجرُ الزاوية في مفهوم "الإسلام المتقدّم"، داعين إلى الحوار بين الأديان، والديمقراطية، وبناء السلام. وبينما جسّد Kyai Haji Ahmad Dahlan الوسطيّةَ عبر الإصلاح المؤسسي والتعليم في أوائل القرن العشرين، وسّع ورثتُه هذا المفهومَ ليصبح إطارًا فكريًا ودبلوماسيًا يتفاعلُ مع تحدياتِ العالمِ المعاصر المتعدد.

إذا كان الاعتدالُ لغةَ الأخلاق، فلابد أن تُصبِح الوساطةُ لغةَ التربية. وعلى جامعات العالم الإسلامي — وخاصةً جامعة المحمدية — أن تضطلعَ الآن بدورها كمؤسساتٍ للوساطة؛ أي

فضاءاتٍ يتعلم فيها الشبابُ تحويلَ المعرفة إلى تعاطف، والإيمانِ إلى حوار.

خريطة طريق لتجديد الوسطيّة بوصفها منهجًا في التوفيق

- أولاً، إعادة فهم الوسطيّة بوصفها وساطة فاعلة:

فهمُ الوسطيّة لا باعتبارها اعتدالاً شخصيًا فحسب، بل مسؤوليةٌ عامةٌ لإصلاح العلاقات وبناء الثقة. وتعليمُ أن معنى أن نكون أُمَّةً وسطًا هو الوقوفُ بين المجتمعاتِ لا على هامشها.

- ثانيًا، تنمية مهارات الوساطة في القيادة المسلمة:

دمجُ مناهجِ حلّ النزاعات، والإصغاء الحواري، والعدالة التصالحية، والدبلوماسية الأخلاقية في برامج إعداد الأئمة والمناهج الشرعية وتكوين القيادات. ودعمُ برامجَ شبابيةٍ تنمّي الذكاءَ العاطفيَّ والقدرةَ على الحوارِ والوعيَ المدنيَّ المتعاطف.

- ثالثًا، إنشاء مؤسسات لرعاية السلام:

تأسيسُ مراكزَ للوساطةِ الوسطيّة في الجامعات الإسلامية الكبرى، والمساجد، والمراكز المجتمعية. والتعاونُ مع المنظمات العالمية لبناء السلام من أجل تعزيز الدور الإسلامي في حلّ النزاعات.

- رابعًا، حماية ورفع مكانة المقدّسات المشتركة:

اعتبارُ الأماكن ذاتِ الأهمية الدينية المشتركة مناطقَ ثقةٍ لا ساحاتِ تنافس. ومواصلةُ الدور التاريخي للمسلمين كأمناءَ

محايدين على المقدسات، مع تأكيد العدالة وحرية الوصول وكرامة الجميع.

- خامسًا، نقل العمل بين الأديان من الحوار إلى الفعل المشترك:

التحوّلُ من النقاشات حول العقائد إلى مشاريعَ تعاونٍ مشتركة، مثل الإغاثة الإنسانية، ورعاية البيئة، وحماية اللاجئين والمجتمعات المستضعفة، وصون التراث الثقافي والديني.

- سادسًا، إحياء الذاكرة الحضارية للتعايش:

إعادةُ تدريسِ نماذجَ تاريخيةٍ للتعايش، مثل صحيفة المدينة، والأندلس، والحضانة المشتركة للقدس، وسراييفو والبلقان، وتمبكتو، بوصفها نماذجَ حيّةً لمجتمعاتٍ تعدديةٍ اليوم.

- سابعًا، التأكيد على بناء السلام بوصفه عبادة:

نشرُ فهمٍ بأن صنعَ السلامِ عبادةٌ تُؤدّى لله تعالى. وتقديمُ الوساطةِ لا كاستراتيجيةٍ سياسية، بل واجبًا روحيًا قائمًا على الرحمة والعدل والكرامة.

واعلم المبدأ الجوهري:

الوسطيّةُ ليست حيادًا، بل هي تدخّلٌ مسؤولٌ ورحيم. وهي رسالةٌ بأن نقف حيث ينقسم الآخرون، وأن نُصلح حيث يجرح الآخرون، وأن نُعيد الكرامةَ حيث تُنتزع. والمحصلةُ المرجوّةُ هي إسهامُ المسلمين في بناء السلام العالمي، بحيثُ يستندُ هذا الإسهامُ لا إلى

ردّة فعلٍ عابرة، بل إلى الهوية والعقيدة والذاكرة التاريخية والعبادة لله والخدمة الأخلاقية للإنسان.

شكراً لكم